صناعة التعدين في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي

د. نورا عبد العظيم(*)

عرف المصريون المعادن المختلفة والتي وجِدت بوفرة في أرض (مصر) منذ العصور القديمة وحتى العصر الفاطمي، ومن أهم هذه المعادن:

- الحديد

حيث تم اكتشاف معدن الحديد في(الصحراء الشرقية) وفي "شبه جزيرة سيناء" وبالقرب من (أسوان) وفي واحات (الصحراء الغربية)، ومما لاشك فيه أن المصريين صنعوا منها التحف المعدنية المختلفة التي استخدمها المصريون قبل الفتح الإسلامي وظل استخدامها مستمرًا حتى بعد الفتح الإسلامي للبلاد(١).

- الذهب

كذلك وجد الذهب قديمًا في (مصر)، وكان يتم استخراجه من خامات بسيطة وتتلخص في غسل الرمل والحصى بالماء الحار عند وجود خاماته الطفلية، فيحمل الماء معه المواد الخفيفة تاركًا حبيبات الذهب الثقيلة التي كانت تجمع وتصهر وتتكون منها الكتل الصغيرة.

وكانت خامات الذهب تقع في المنطقة الواقعة بين (وادي النيل) و(البحر الأحمر) في (الصحراء الشرقية) الممتدة من جنوب طريق (قنا القصير) إلى حدود (السودان) كما وجدت مراكز قديمة لاستخراج الذهب على مسافة كبيرة شمال خط عرض (قنا) وهناك مراكز أخرى تقع في بلاد (النوبة). ولما نزح العرب إلى بلاد (البجة)، وخصوصًا عرب (ربيعة)، عرفوا طريقهم لمناجم الذهب وعملوا على استخراج التبر من المنطقة التي عُرِفت باسم (العلاقي).

ويذكر اليعقوبي: عدة مواضع لمعدن التبر كانت توجد جنوب (أسوان)، وتنتهي إلى (وداي العلاقي) يقصدها أصحاب المطالب من العرب، فيجتمعون في الوادي الذى صار كالمدينة العظيمة على حد قوله وبها الأسواق والتجارات(٢).

(*) باحثة بمركز تحقيق التراث دار الكتب والوثائق القومية.

(١) التيفاشي : نزهة الأفكار في جواهر الأحجار ،ص٤١-٤٢.

(٢) اليعقوبي: البلدان ،ص١٧٢-١٧٣.

ولما فتح العرب (مصر) استخرجوا الذهب، وكانت طريقتهم لا تختلف كثيرًا عما كانت عليه من قبل فكان الناس يتجولون في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر ويعملون على المواضع التي يرون فيها شيئًا مضيئًا بعلاماتٍ يعرفونها، ويبيتون هناك فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التي علموا عليها ومضوا به إلى آبار هناك؛ ليغسلوها بالماء ويستخرجوا منها التبر، ثم يقومون بمزجه بالزئبق ويسبكونه بعد ذلك [١].

والواقع أن الحصول على الذهب لم يقتصر منذ الفتح العربي على استخراجه من تلك المناطق بل تشير المصادر إلى الكنوز والدفائن التي كان يحتفظ بها الأقباط المصريون واستيلاء الحكام العرب عليها، وثمة مورد آخر من موارد الثروة استغله الفاتحون في (مصر)، وهو الكنوز المدفونة في المقابر الفرعونية. وتشير المصادر التاريخية إلى أعمال البحث عن الكنوز في (مصر). فمن ذلك أنه أمكن العثور في عهد "عبد العزيز بن مروان "على تماثيل مختلفة الشكل من الذهب وعلى أجربة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتها، وتم إحكام غلقها بأعمدة من الذهب الخالص[٢].

وزاد الاهتمام بأعمال البحث عن الكنوز منذ عهد (ابن طولون)، حيث أصبحت تتولاها السلطة الحاكمة وكون أصحاب المطالب أو الباحثون عن الكنوز نقابة حقيقية من نقابات الحرف، وصارت خاضعة للضريبة كسائر الحرَف الأخرى، فيذكر أن تم العثور على كنز قدره ألف ألف دينار أيام (ابن طولون) وهو ما شاع ذكره بحديث الكنز، ويتحدث المؤرخون عن استمرار البحث في عهد الإخشيديين عن الذهب، فذكر أنه في باطن الأهرام مطلبًا عجبًا، وصار خبره إلى (محمد بن طغج الإخشيد)، فأذِن لهم في حفره وذلك في عام ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م ، ولكن عمال الحفائر لم يعثروا على الكنوز من الذهب، وإنما بعض الصور من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروز والزبرجد وغير ذلك من الآلات من المرمر والرخام [٣].

وفي عصر الفاطميين ظلت موارد الذهب في (العلاقي) متوفرة، وقد أشرفت الدولة على هؤلاء المشتغلين باستخراج الذهب من بني الكنز وغيرهم وكان الفاطميون في بداية القرن الرابع الهجري وقبل مجيئهم إلى (مصر) قد أصبحوا سادة طرق الذهب

(١) آدم متيز:الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٤/ ٢٦٦، محمد جمال الدين سرور تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق،ص ١٣٨-١٣٩.

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ١/ ٢٧٥-٢٧٦.

(٣) السيد طه أبو سديرة : الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر ، ص١٤٤.

الوراد من (السودان) وأعماق إفريقيا وصارت لديهم المقادير الهائلة من الذهب، حيث خصصوا مبالغ ضخمة لدعايتهم في (وادي النيل) منها .وقيل إنه لما قدم "المعز لدين الله" إلى "القاهرة" حمل معه من السبائك الذهبية في هيئة أحجار الطواحين المستديرة ليسهل حملها على الجمال. وذكر أيضًا أن القائد (جوهر الصقلبي) في غزوته من أجل فتح (مصر) معه ألف حمل من الذهب، لذا فكان دخول الفاطميين للبلاد يحملون معهم تلك المقادير الضخمة من الذهب وقيام دولتهم في (مصر) من أهم العوامل التي أدت إلى وفرة الثروة من هذا المعدن النفيس [١].

ومن (وادي العلاقي) كان يحمل الذهب خلال العصر الفاطمي بعد سبكه إلى ميناء (عيذاب) على ساحل (البحر الأحمر)، حيث يأتي التجار فيجلبونه وغيره من العاج واللؤلؤ في المراكب إلى (القلزم) ومنها إلى (الفسطاط). وقد عرف المصريون منذ القدم إجادتهم صهر المعادن وصبها لتشكيل الذهب والنحاس والرصاص والفضة والبرونز والقصدير، فكانت خير عونٍ لهم في سبيل صنع كافة الأدوات والآلات المعدنية وإنتاجها منذ فجر الإسلام، وفي تقدم وازدهار تلك الصناعات المعدنية حتى عصر الفاطميين [٢].

ومن خير الأمثلة على ذلك ما قام به الصناع المصريون في عهد (خمارويه بن أحمد بن طولون) حينما صهروا النحاس وكسوا به أجسام النخل وجعلوا بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجري فيها الماء المدبر، فجاءت في أحسن صنعة، وما تم استخدامه من معادن النحاس والذهب والفضة في صناعة المرصد الفلكي حين أراد (المأمون البطائحي) في عهد (الآمر بأحكام الله) إعادة بنائه [٣].

-الأحجار الكريمة

وذكر المؤرخون أنه من فضائل (مصر) وجود الأحجار الكريمة مثل الزمرد والزبرجد والياقوت واللؤلؤ وأنواع أخرى من المعادن، خصوصًا في منطقة (الصعيد الأعلى). فذكر اليعقوبي: (أن معدن الزمرد كان يُستخرَج من مكانٍ قريبٍ من قفط فوجد جبلين: أحدهما عُرِف بالعروس، والآخر بالخصوم). كذلك ذكر المسعودي : (طريقة استخراجه حيث كان العمال يحفرون عليه في الجبل فيجدونه على شكل عروق خضر في تجاويف الأحجار البيضاء، ويتم إخراجه واستخلاصه على هيئة قطع صغيرة كالحصباء منبثة في

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ١/ ١٥٨.
(٢) هولمز ، هارنيكولز: قصة الكيمياء ص ٧.
(٣) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٤/ ٥٨.

تراب المعدن، وكان عمال مناجم الزمرد ينخلون التراب ثم يوجد خلاله فيغسل كما يغسل تراب الفضة)، وكان يجمع ما يستخرج من هذا المعدن النفيس ويصدر إلى (الفسطاط) وقد أصبح من أهم موارد الثروة في صعيد (مصر). وكان له مباشرون وأمناء يتولون استخراجه وتحصيله [١] .

ومن الأحجار الكريمة التي اشتغل المصريون باستخراجها من منطقة صعيد (مصر) ومناجمها الزبرجد، وهو أقل وجودًا وندرة من الزمرد. ويشير ابن حوقل إلى موضع استخراجه فيقول: "إنه في برية منقطعة العمارة ليس في الأرض غيره". ويتحدث الجاحظ عن أوصافه في صدر الإسلام، فيقول: "ومعرفة الزبرجد الفائق المعمول المتحد كمعرفة اليواقيت برزانة وبرودة مذاقه وعمل المبرد فيه على مهل". ويصف التيفاشي: " لون معدن الزبرجد فمنه أخضر مغلوق اللون، ومنه أخضر مفتوح اللون، ومنه معتدل الخضرة رقيق المستشف، وكانت الهند والفرنج تعظمه" وحتي زوال الدولة الفاطمية كانت "مصر "تعمل على استخراجه وتشتغل بتجارته، ولها الشهرة في مجال تصديره إلى الخارج[٢].

كذلك أشارت المصادر إلى استخراج الياقوت من مناجم الذهب التي كانت تقع في المنطقة الممتدة بين نواحي (قفط) وساحل (البحر الأحمر). و كان اللؤلؤ من بين موارد الثروة التي عُني باستغلالها في منطقة (البحر الأحمر). ويشير ابن جبير: إلى اهتمام أهل (عيذاب) في العصر الإسلامي باستخراجه من الجزر القريبة من ساحل (البحر الأحمر) حيث كان يخرج الغائصون إلى تلك الجزر في زوارق يقيمون فيها أيامًا فيستخرجون اللؤلؤ من قاع البحر، وهو جوهرٌ نفيسٌ له قيمة عظيمة ، فكانوا يستخرجون منه المقادير الكبيرة التي تدر عليهم أموالا طائلة خلال العصر الفاطمي [٣].

- معدن الشب والنطرون

ومن المعادن التي اشتهرت بها "مصر" في العصور الإسلامية الشب والنطرون، فعرف عمال المناجم سبيلهم إلى استخراج معدن الشب من (الواحات الخارجة) بالقرب من مدينة (أسوان)، وكان تكلفة استخراج القنطار منها ما يوازي ثلاثين درهمًا أوأقل من ذلك، وكذلك كان يتم استخراجه من (قوص)، و(أخميم)، و(أسيوط)، و(البهنسا)، ويُحمل

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ١٨-٢٠.
(٢) أزهار الأفكار ، ص ٢٥٥-٢٥٦.
(٣) الجاحظ: التبصر بالتجارة ، ص١٧.

من هذه السواحل جميعها في المراكب إلى (الإسكندرية) [١].

ومعدن الشب كان من الموارد التي احتكرت الحكومة الفاطمية عملية استغلالها تمامًا، وكان ما يباع منه المتجر بـ (الإسكندرية) نحو خمسة آلاف قنطار وسعره من خمسة دنانير وربع لكل قنطار، ولم يكن يباع منه بـ(القاهرة) أكثر من ثمانين قنطارًا بسعر القنطار سبعة دنانير ونصف، وهكذا كان يدر على الدولة الفاطمية عائدًا كبيرًا بفضل سياسة الاحتكار التي اتبعوها.

أما معدن النطرون، فكان يُستخرَج من منطقتين: إحداهما تسمى (الطرانة) من أعمال (البحيرة) بالوجه البحري، وكانت نحو مائة فدان تغل نحو مائة ألف دينار في كل سنة. والمنطقة الثانية في (فاقوس) بشرق الدلتا، ولكنه لم يكن بجودة المستخرج من (الطرانة). وهناك مكان كان يوجد به رواسب للنطرون بالقرب من (البهنسا) بالوجه القبلي تبلغ مساحته حوالي المائة فدان. وقيل إنه بدأ استغلاله منذ عهد (ابن طولون)، وأن الإيراد السنوي الناتج منه كان يربو على الخمسين ألف دينار [٢].

وظل استخراج النطرون مباحًا للناس من الفتح الإسلامي حتى حظره "أحمد بن المدبر" وجعله في ديوان السلطان. وكان أكثر المهتمين باستخراجه وحمله إلى الجهات التي يباع فيها هم العربان خلال العصر الفاطمي ، فيقول في ذلك ابن مماتي: "والعادة المستقرة أنه متى اتفق من الديوان مع العربان على أجرة حمولة عشرة آلاف قنطار ألزموا بحمل خمسة عشرة ألف قنطار حسابًا عن كل قنطار ونصف". ومما يدل على وفرة إنتاجه وإلزام الذين يتكفلونه بالنقل، العمل على حَمْل النصف تقريبًا بدون أجرة تُدفَع لهم.

ومما يجدر ذكره أن معدني: النطرون، والشب من المواد الهامة التي كانت تستخدم في كثير من الحرف والصناعات، وعلى الأخص حرفة الصباغة وصناعة الألوان.

أهم الحرف والصناعات التي قامت على التعدين:

-صناعة الأدوات والآلات الحديدية والنحاسية، وفن التكفيت

توافرت تلك الحرفة نتيجة لوفرة المواد الخام اللازمة لها، فاشتهرت مدينة (الفيوم) و(البهنسا) وغيرهم من المدن المصرية بإنتاج الأدوات والآلات المعدنية من فجر الإسلام على أيدي الحدادين وغيرهم من الصناع، فاهتم الحكام العرب في (مصر) وغيرها من

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،ص٢٠٩.

(٢) ألفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ،ص ٤٠٨.

الأقطار الإسلامية بحرفة الحدادة والحدادين، والذين لم يقتصر عملهم على صناعة الآلات الحديدية البسيطة ووسائل الزراعة، بل صنعوا الأدوات اللازمة للعمارة مثل الأقفال والأبواب الحديدية، كما قاموا بصناعة الصنج والأوزان المختلفة من الحديد. كذلك يضم متحف الفن الإسلامي مجموعة من الأطباق النحاسية وبعض الشمعدانات المصنوعة من البرونز. كذلك ضمت المتاحف الخارجية مجموعة من الأباريق والأواني النحاسية و البرونزية التي صنعت في تلك الفترة وكانت ذات مقابض طويلة وصنابير ممتدة مزينة بأشكال آدمية وحيوانية .كما تضم أيضًا مجموعة من التحف المعدنية جاءت على أشكال الحيوانات والطيور [١].

وهكذا ظلت صناعة المعادن وزخرفتها في العصرين الأموي والعباسي حرفة الأقباط في (مصر) حيث استخدموا الكثير من الأدوات المعدنية في كنائسهم، وذلك خلال القرن الأول الهجري. وبدأ المسلمون بعد انتشار الإسلام في البلاد في القرن الثاني الهجري في العمل على تقليد الأقباط في صناعة أشكال كثيرة من الأدوات المعدنية من النحاس والبرونز، ولعل الأسماء التي ذكرت على شواهد القبور للحدادين أواخر عصر الولاة وأوائل حكم الطولونيين والإخشيديين تؤكد على ازدهار تلك الحرفة، فظلوا يتوارثونها جيلاً بعد جيل [٢] .

وأمدت مظاهر النهضة الصناعية إلى المعادن في عهد الطولونيين والاخشيديين حيث راجت صناعة الأدوات المصنوعة من النحاس، ولا غرابة في ذلك فقد أنشئت مسابك النحاس بـ(الفسطاط)، كما وجدت دار النحاس بالقرب من (سويقة معتوق) بـ(الفسطاط) وسوق النحاس التي كانت تقع بالقرب من جامع (عمرو بن العاص) وهكذا حفلت (الفسطاط) بمظاهر رواج وتقدم صناعة النحاس والأسواق التي تضم مجموعة الحوانيت لبيع الأواني المنزلية وغيرها من المستلزمات المصنوعة من النحاس [٣]. وازدهرت تلك الصناعة في العصر الفاطمي نتيجة لاهتمام الحكام بتوفير الخامات، فأصبح عمل المصانع ليس مقصورًا على إمداد الجيش والأسطول الفاطمي بالسلاح والعتاد الحربي والملابس لطوائف الجند، بل تنوعت المنتجات والمصنوعات لتغطية احتياجات الأسواق الخارجية من المنتجات المصرية، فضلاً عن الحاجة لسدّ متطلبات القصور الفاطمية ورجال الدولة وعامة الشعب. كما أتقن الصناع المصريون فن تسقية

(١) ألفريد ج بتلر:فتح العرب لمصر ،ص٢١٨.
(٢) السيد طه أبو سديرة :الحرف والصناعات الإسلامية ،ص ١٥٧.
(٣) ابن دقماق :الانتصار ٤/ ١٠٨.

الفولاذ، ومما ساعدهم على ذلك إنشاء مسابك خاصة بالفولاذ بـ(الفسطاط)، وكان موضعها بأرض (الحسينية) خارج باب الفتوح بـ(القاهرة) [١].

كذلك كان للحكام الفاطميين اهتمام كبير بدار العيار وصناعة الأوزان المختلفة من الأرطال الحديدية، فقد أشار المقدسي: إلى أن الفاطميين اتخذوا في (شمال إفريقيا) صنجًا من رصاص وجاؤوا بها إلى (القاهرة) وانتشرت صناعتها في عصرهم ويوجد بعض منها من بين مقتنيات المتحف الإسلامي. كذلك أبدع الفنانون في صناعة الشمعدانات الفاطمية فقد زينوها بالزخارف النباتية وبكتابات الخط الكوفي. وقد صنع فنانو العصر الفاطمي الأواني النحاسية والبرونزية على أشكال الحيوانات، وكانت في الغالب أباريق من النحاس الأصفر.

هذا بالإضافة إلى التحف المعدنية التي كانت تحفل بها القصور الفاطمية مما يدل على مهارات الصناع وتفوقهم في صناعة تماثيل البرونز التي كانت تستعمل أحيانًا مباخر أو صنابير للأواني وأحيانًا أخر ي للزينة، وبعض الأواني تم صنعها وتشكيلها على شكل طائر أو حيوان [٢].

ومما يدل على ازدهار هذه الصناعة ما كان الفاطميون يستخدمونه من القناديل في ليالي المواسم والأعياد، هذا بالإضافة إلى السلاسل النحاسية، وكذلك اتقن الصناع أدوات الكتابة وحرصوا على تطويرها وتجميلها لحفظ الأقلام والحبر مثل المقلمات والمحبرات، فإنهم أبدعوا في صناعة الشمعدانات الفاطمية، فقد زينوها بالزخارف النباتية وبكتابات الخط الكوفي المزهر، كما صنعوا آلات الموسيقي وأدوات الطرب كالنقارات والصفارات والصنوج والأبواق وغيرها، وكانت تُصنَع من النحاس والذهب والفضة، وتستخدم في المواكب الفاطمية والأعياد، وصنعوا أيضًا الآلات الدقيقة مثل الإبر المغناطيسية وبندول الساعات وآلات الجراحة الطبية الدقيقة، وخصوصًا تلك التي تستخدم في جراحة العيون[٣].

-صناعة الحلي والجواهر الكريمة

كانت (الإسكندرية) في مقدمة المراكز الهامة لصناعة أنواع الحلى والجواهر الكريمة في (مصر) الإسلامية، كما أنتج الصناع في كل من مدينة، (البهنسا) و(قفط) أنواع الحلى المختلفة من العقود والخواتم والأقراط الذهبية المحفوظة بالمتاحف المصرية.

(١) السيد طه أبوسديرة :الحرف والصناعات في مصر الإسلامية، ص١٥٨.

(٢) زكي محمد حسن :الكنوز الفاطمية ، ص١٤٠.

(٣) السيد طه أبو سديرة: المرجع نفسه. ص١٦٢.

فيحتفظ المتحف القبطي بمجموعة من أقراط مصنوعة من الذهب على شكل عناقيد تم اكتشافها في (الواحات البحرية)، وأيضًا مجموعة من الدلايات والخواتم والأساور التي ترجع صناعتها إلى تل (أتريب) بنواحي (أخميم) من العصر القبطي. كذلك عثر بدير (القصير) على مجموعة من أدوات الزينة والحلى مصنوعة من الفضة والبرونز، وتشمل أساور وخلاخيل وأقراط وخواتم[١] .

كذلك توضح لنا المصادر اهتمام الطولونيين بأنواع الحلى وأدوات الترف والزينة ويعتبر جهاز قطر الندي ابنة (خمارويه) خير شاهد على ذلك، فقد تفنن صناع الحلى والجوهر في إبداع الأشكال العجيبة من التحف الذهبية وغيرها من الطرائف، فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مُشبك في كل عينٍ من التشبيك قِرْط فيه حبة من الجوهر لا يعرف لها قيمة، وصناديق مملوءة بالشمعدانات، وأواني الذهب والفضة[٢]. وازدهرت صناعة الحلي والجواهر في عصر الإخشيديين، ومما يدل تلك المظاهر التي جاءت في وصف الاحتفال بليلة الغطاس بـ(مصر) وقد خرج مئات الألوف من الناس من المسلمين والنصارى يشاركهم (الإخشيد)، وعليهم من الملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر ما يفوق الوصف وقد اهتم (محمد بن طغج الإخشيد) بصناعة الجواهر، حيث بلغ ما خلفه من الثروة حين وفاته ما قيمته مائتا ألف دينار من نوع المجوهرات الثمينة . وفي العصر الفاطمي لم تقتصر صناعة الحلي على أدوات الزينة الخاصة بالنساء، وإنما كانت أدوات كثيرة تُصنع من الذهب وتُحلى بمختلف أنواع الجواهر والزمرد وهي مما لاشك توضح لنا مدى استخدام الذهب والفضة ومظاهر الترف لدى الفاطميين وحرصهم على اقتناء التحف الثمينة من جهة، كما تكشف لنا من جهة أخرى عن المهارة الفائقة التي بلغها صناع الحلي والجواهر في عصرهم، ولعل المسميات التي أطلقها الفاطميون على مجالس حكمهم، مثل: قاعة الذهب بالقصر الشرقي، وقصر الذهب الذي تم تشييده في (عهد العزيز بالله)... وكل تلك المسميات تدل على تشجيع صناعة الحلي والجوهر[٣].

كما استخدم الفاطميون الذهب والفضة كذلك في تحلية السروج والسيوف؛ فقد بلغ ترفهم ومظاهر النعيم إلى أنهم صنعوا الآلات الموسيقية من الأبواق والنقارات

(١) محمد عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر قبل الفاطميين ، ص ١٠٨-١٠٩.
(٢) ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣/ ١٨.
(٣) آدم متيز: الحضارة الإسلامية ٢/ ١٨٢.

والطبول وغيرها من الذهب والفضة، وكانوا يستعملونها في مواكبهم العظام، وقد حرص الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على اقتناء المجوهرات والتحف المعدنية الثمينة التي كانت من أهم مظاهر الترف والنعيم منذ بداية عهدهم، فقد جاء في ترجمة (العزيز بالله) أنه كان أديبًا فاضلاً يعرف قيمة الجوهر ويحرص على اقتنائه، كما حرص وزيره (يعقوب بن كلس) على حوزة الجوهر اقتنائها أيام تولية الوزارة . ومما لا شك فيه أن صناعة الحلى أو الجواهر لم تكن قاصرة على (الفسطاط)، بل ظلت (الإسكندرية) من مراكز الصناعات الهامة خلال العصر الفاطمي، كذلك اشتهرت المدن المصرية الأخرى كـ(الفيوم) و(الأشمونين) و(البنهسا) و(أسيوط) و(أخميم) و(قوص) بالصعيد، وكذلك (تنيس) و(دمياط) وغيرهما من مراكز الصناعة والحضارة بالوجه البحري، فقد كانت حافلة بأسواقها وفي قيام الصاغة والجوهرين بصناعة أنواع الحُلي وأدوات الزينة بها أيام الفاطميين[1].

-صناعة سك النقود ودور الضرب المصرية

كانت دار الضرب بـ(الإسكندرية) من أهم دور الضرب في (مصر) قبل الفتح العربي، وظلت تسك بها النقود بعد الفتح الإسلامي منذ أوائل العصر الأموي واستمر بها الضرابون والنقاشون وغيرهم من الصناع في عصر الولاة. ثم تم تأسيس دار ضرب في (الفسطاط) بعد الفتح وبدأت عملها بسك العملات النحاسية، ولم تبدأ في ضرب الدنانير إلا في العصر العباسي حينما حصل الوالي في (مصر) على حق الضرب للدنانير الذهبية، كانت دور الضرب المصرية في عصر الولاة تضم العديد من هؤلاء الصناع من النقاشين والسباكين والضرابين وجميعهم من خيرة الفنيين المهرة في صهر المعادن وسك النقود. وقد أوضح ابن بعرة تلك المراحل التي كان يمر بها المعدن في دار الضرب ليصبح عملة صالحة للتداول بعدها، كما أشار إلى إعداد سبيكة الدراهم وطريقة تصفحيها حيث كانت الدراهم المصرية منذ فجر الإسلام عبارة عن صفائح رقيقة من الفضة مضروب عليها بقالب الدرهم من وجهين بعد التأكد من نقاء سبيكة الفضة، حيث تضرب الدراهم على القطع التي تم تدويرها دون تشقق، وكانت تقطع سبائك الفضة ويضاف إليها جزء من الرصاص، حيث يقوي صلابة الصفائح الفضية ثم تُجلى بعد ذلك عن طريق جمعها في كبشة وتنطفئ وهي ساخنة في ماء الليمون والملح

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان،٤/ ٤١٣.

حتي إذا ظهر بياض الفضة جليت بالرمل الناعم ويختم عليها[١].

وكان على المقدم أن يحافظ على عياري الذهب والفضة بدار الضرب، وذلك بفضل تحقيق وزن كل سبيكة ترد إلى دار الضرب، ولا بد للمقدم من معرفة ما في الأتون(الفرن) من سبائك، ويختم على الأتون حتى لا يتطرق إلي سبائك أبواب الشك والفساد. أما عمل النقاش، فهو حفر الكتابات المزمع إبرازها على السبيكة مقلوبة على القالب الأم من أجل إظهار بروزها على السكة، وكان من عمل السباك أن يحضر وزن النحاس قبل طرحه في البوتقة والفضة في حال السبك، وعليه أن يوزن العيار ونسبة النحاس إلى الفضة، فإن درك الحاصل كما يقول ابن بعرة في حالة السيطرة عليه والمسلم تحت يده. وأما الضراب، فكان يقوم بالختم على السكة المصبوبة قبل أن تبرد وتعود إلى صلابتها ، وإعداد القضبان المعدنية من السبائك المصهورة لإنتاج الدنانير أو الدراهم والفلوس أيضًا أو الختم على الأجزاء المستديرة من كل معدن فيها، ثم جلاء سكة الذهب والفضة قبل السماح بتداولها... وهكذا كانت دور الضرب وما تضم من النقاشين والسباكين والضرابين من أهم المراكز للصناعات المعدنية في "مصر" الإسلامية[٢].

لذا نشطت حركة سك الدنانير والعملات الأخرى بعد أن حملت السياسة الفاطمية الناس على التعامل بالدنانير الفاطمية والعمل على الإكثار من ضربها؛ حتى تغمر الأسواق. كما عمل الفاطميون على ضرب عملات جديدة من الذهب هي ربع الدينار أو الربع، وأصدروا منها الكميات الضخمة، فتذكر المصادر أن الخليفة الفاطمي كان يعطي في نهاية العام الهجري أمرًا بسك كميات من النقود الجديدة تُسمى الفره، وهي مجموعة من الدنانير ومن الرباعيات والدراهم المستديرة. كما جرت العادة أيضًا أن توزع في عيد الفطر بعض المسكوكات الذهبية والفضية التي كانت تضرب خصيصًا بهذه المناسبة، كما كانت دار الضرب تقوم بضرب نوعٍ من المسكوكات التذكارية صغيرة الحجم خفيفة الوزن أطلق عليها اسم خراريب؛ لتوزع على أفراد الشعب في بعض المواسم والأعياد كما هو الحال في خميس العهد[٣].

كانت دار الضرب يتولاها في العصر الفاطمي قاضي القضاة؛ تعظيمًا لشأنها، ويقيم لمباشرة ذلك مَن يختاره من نواب الحكم، وبقي الأمر حتى بعد زوال الدولة الفاطمية، وقد تميزت العملات الصادرة من دور الضرب في العصر الفاطمي بزيادة

(١) عبد الرحمن فهمي : موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، فجر السكة العربية ، ص١٠٣.
(٢) السيد طه أبوسديرة : الحرف والصناعات في مصر الإسلامية،ص ١٨٥.
(٣) السيد طه أبوسديرة : المرجع نفسه،ص١٨٦.

النقوش والزخارف؛ إذ عمل الصناع على نقش كل وجه من وجهيها بثلاثة دوائر داخل بعضها، وكانت الكتابة على النقود بالخط الكوفي البارز، كما يتضح ذلك من الدنانير الفاطمية التي تم سكها في دار الضرب بـ"الإسكندرية"[١].

(١) السيد طه أبوسديرة : الحرف والصناعات في مصر الإسلامية ، ص١٨٧.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- ابن تغري بردي : (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م):

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. د. ط. القاهرة : دار الكتب ،١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

-التيفاشي : (أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون ت٦٥١هـ/ ١١٨٤م):

- نزهة الأفكار في جواهر الأحجار، تحقيق: د. محمد يوسف حسن ،ومحمود بسيوني خفاجي. د. ط. القاهرة : مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م.

-الجاحظ: (أبو عثمان عمر بن بحر ت٢٥٥هـ/ ٨٦٨م):

-التبصر بالتجارة، اعتني بتصحيحه: حسن حسني عبد الوهاب .د.ط. دمشق ، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

- ابن دقماق : (إبراهيم بن محمد العلاقي ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٧م):

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار. د. ط. القاهرة : المطبعة الأميرية، ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م.

- المسعودي : (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):

-مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتني به وراجعه : كمال حسن مرعي. ط١. بيروت: المكتبة العصرية ،١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

-المقدسي: (شمس الدين أبو عبيد الله ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) :

-أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن: مطبعة ليدن، ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م.

-المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمدت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م):

-اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال. د. ط. القاهرة : المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبوعبدالله ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م):

- معجم البلدان.د. ط. القاهرة : دار المأمون ، ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م.

- اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح ت٢٨٤هـ/ ٨٩٧م):

- البلدان، وضع حواشيه : محمد أمين ضناوي. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

المراجع:

آدم متيز:

-الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة، ط٣ ،١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م.

- الفريد ج بتلر:

- فتح العرب لمصر، ترجمة : محمد فريد أبو حديد. د. ط. القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م .

- ألفريد لوكاس :

- المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة : زكي إسكندر، ومحمد زكريا غنيم. د.ط. القاهرة ،١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م.

- زكي محمد حسن :

- الكنوز الفاطمية. ط١. القاهرة: المجمع المصري للثقافة العلمية، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

- السيد طه أبو سديرة :

- الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي. د. ط. القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ،١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- عبد الرحمن فهمي :

- موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، فجر السكة العربية. د. ط. القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ،١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

- محمد جمال الدين سرور :

- تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق. د. ط. القاهرة: دار الفكر العربي،(د.ت).

- محمد عبد العزيز مرزوق:

- الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر قبل الفاطميين. د. ط القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

- هولمز ،هارنيكولز:

- قصة الكيمياء ، ترجمة: ألفونس رياض ، وعبد العظيم عباس. د. ط القاهرة، (د.ت).